كتاب عبدالله او ازمة الانسان المعاصر

بقلم الاب جورج انطونيوس اليسوعي

شهدت المكتبة العربية في السنين الأخيرة تحولا عميقاً اقتضته الحالة الراهنة في العالم العربي . فظهر الأدب الجاف الذهني لا يملأ القلب : من مذكرات سياسية او عرض عقائد الاحزاب ومناهجها التحررية ، الى درس وتحليل قضية فلسطين ومستقبلها ، حتى ان الشعر ذاته التزم بموضوع الصراع والنكسة . في هذا المناخ الخاص طلع علينا « كتاب عبدالله » لأنطون غطاس كرم ، فاذا به لم يشذ عن اتجاهات التيار المهيمن على المنطقة ، إلا انه تخطى الموضوع الواحد والبيئة الواحدة « ليعانق احزان الأرض واحلامها ويعبر عن قلق الانسان المعاصر وألمه لانهيار القيم وطغيان قوى الشر » على حد قول روز الغريب .

شخصية عبدالله

من يكون عبدالله ؟ هل هو انسان الاسطورة او الرجل المثالي يجسم الافكار السامية ؟

عبدالله هو انسان اللحم والدم ، يعيش باحاسيسه المرهفة وبوجدانيته المتيقظة ، يبحث عن مصيره ، يتقراه في احداث ايامه ، يقيس ما تحمل اليه من غبطة . وعندما يسقط في مهاوي الانانية الضيقة ، يعرف كيف لا يستسلم الى التحجر القتّال . ومع انه لم ينغلق في بقعة معينة ، ولم يتمسك بثقافة محددة ، ظلّ منتسباً الى الشرق والى ايامه المعاصرة .

مزاج عبدالله قريب من كل انسان يصبو الى الانعتاق . شخصيته لا تذوب في الآخرين ، ماهيتها دوام التجدد في لقاء الوجود . مصيبة عبدالله الكبرى ، هي عندما يعري الحقائق فيموت في داخله « هذا الذهول المتهلل

الذي به تتجدد نعمة البهجة في الأرض » . عندما يعثر على كل جواب فتزول الدهشة من فؤاده . ويحيا عبدالله عندما تعاوده « الدهشة البكر » ويعشب روحه ما يشبه البعث .

مصاحبة عبدالله تعني الانزلاق وراء انفعالات الفكر القلق المرتبط بالفعل الملموس وبالواقع اليومي الذي نصادفه على حواجب الدروب . فهو يعرف كيف يصغي الى نداء الآخرين : ان يحدق في الوجوه . ان يتعدى الوقت فيقول الى رفيقه : (« ضاقت الجدران بي . وحنيني الى المدى يتجدد » . ثم نهض ، وفتح النافذة على الليل ، وجعل يتأمل .)

تطلعات عبدالله

بدأت مغامرة عبدالله بانفتاحه على العالم وعلى ثقافاته وكائناته حتى انه « كان اذا اصغى ادرك بالسمع الخفي تنفس الاعشاب ، وحركة الحياة السارية في نمو الوجود المتحول » ولقد وصل في نهاية مطافه الى حد فقدان عنصر المفاجأة ، وتسرب السأم اليه بعد ان « اعتدلت لديه المتناقضات » فتراجع والتجأ الى ذاته بعد ان « انفصل عن الجماهير واوصد بابه وحبن نفسه في عزلة دائرية داخلية » . وكأن ذاته تربعت على محور العالم فوجد فيها الوسيلة والغاية فكان يقول : « انا الشارب والساقي وانا الخسرة والنشوة » فكان « الحمت والغربة والعيش العاقر في انفراد الذات » .

يصل اليه « نداء المعذبين في الارض » وقضية انسان العصر غدت جنية بيضاء تلوح له بالامل : « تنشق الحياة وارصد نسوجعين حبات فؤادك » « اخرج من ذاتك الفقراء وتمتع بالسعي الخصيب الى سعادة الانسان » .

وينهض عبدالله بعد ان استرجع « نكهة الرؤيا العالمية » « فتقدس الفكر وانتبذ المطامع الداعرة : شهوة الكسب وشهوة السلطان » ولكن عبدالله يبقى انسان اللحم والدم ولا يشبه البتة الرجل المتفوق . فاذا به يحنين الى ماضيه الصغير الضيق « ولشد ما تمنى لو ظل في مناخه القديم ، وانفصل عن جيله ونأى عن رتيبه سموم العصر » اذ ان دخوله العالم سيحمل اليه آلام البشرية ومتاعبها .

هو امام « الجندي المشرّم المتهوك في مستنقعات الملاريا وسنابل الارز المتلفة ، نبتت من نجيع خصره المفتوح حديقة ورد » .

هو امام الفقر في العالم : « في مخيمات اللاجئين . وفي ازقة نابولي القديمة ، رأيت الصغار على الدروب الغبراء ؛ والدروب تنسل انسلال الافاعي : رأيت الصغار ينبشون المزابل ؛ ويدمي الجائع الجائع من اجل كسرة خبز » .

هو امام الصراع العنصري : « رأيت (الاسود) بالأمس تغتاله المدينة المجنونة ويراق الارجوان على الدمع ويغور في صلصالة الارض صوته ودمه » .

« وتئن الارض تخرق بالمطامع تتصوّر في مجاعتها الروحية فوق مجاعتها الدنيوية » وهكذا « تضعضعت لديه اقيسة المنطق » .

وفي ظلام العالم يعود عبدالله الى الطفولة وذكراها . فيستقرئ « في نظرات الاطفال . في عيونهم الباكية . الضاحكة ؛ الخائفة . اللئيمة ؛ المتعجبة ؛ نقاء الأساطير التي ضيعها البشر » .

الكلمة في خدمة الذوق

ميزة كتاب عبدالله الرئيسية . هو انه مبني على الذوق . وانه يتوجه الى الانسان بأكمله : فيطرب سمعه ؛ ويوقف نظره ؛ ويشغل فكره . الجديد فيه : هو التضامن التام بين الاسلوب والمحتوى . فالكلمة والعبارة والصفحة والفصل من الكتاب . اجزاء وحبة تسبح فيها الفكرة العافية . فيظفر الانسجام ويظهر عنفوان المضمون على كلمات استحالت اداة انفعال .

يهمس عبدالله همساً . لكنه كصاحب وجدان يتكلم الى القلب : فيستحيل كلامه شعراً : « رأيت الايدي الصغيرة الجائعة تفتحت ازاهر بيلسان . رأيت في مآقي الاطفال لآلئ تكسر فيها وجه القمر » .

وتظهر الرمزية النقية بتعابير غنية المغزى . عذبة الوقع : فريدة في رونقها فنسمع « بالمعارج الدولبية » . « اللحظة المتشعبة » . « الدهشة البكر » . « اليأس المصفى بالتصوف » . وما هذه الكلمات الا صورة لعملية التكثيف المتغلغلة في طيات الكتاب .

ان اسلوب انطون غطاس كرم جاء تعزية للقارئ العربي الذي ارتوى في ايامنا هذه من النثر المتفلسف او المتحزب المعتمد على الخطابة . ولقد اعاد الى اللغة العربية منطق الروح ومنطق الجمال والابداع .

عبدالله ابن العصر

قوة عبدالله تكمن في بساطته : فهو لم يترفع عن المجتمع ليعالج بعض النظريات فيدعمها بالعقائد الثابتة وبالمناهج التقليدية . فضيلة عبدالله انه ينطلق من التاريخ وتاريخ بشرية اليوم . واذا ابتغى الشمول : جاء ذلك طبيعياً دون تكلف او مغالاة . عبدالله يعيش عصره ، ويتقبل تياراتـــه ومشاغله . فينتقلنا الى صميم العالم والى همومه بتلميحات واشارات خاطفة لكنها جلية .

عبدالله يفتش عن حريته : ولا يطمس كيانه حياء . بل ينكلم بطلاقة عن ذاته . وهو يعي حال امته : وحال من حوله من الشعوب المغسولة الدماغ . يثور على طقوس الدين : فيقدس الى حين العلمانية . الى ان يشاهدها « تمتطي ظهر الشيطان » وعندما ينظر الى العالم يرمق التخلف والفقر المتفشي بين الامم . ويصغي الى احتضار العدالة والصراع الدموي بين البشر . وتوق الانسان الى السلام المرتجى . فتظهر له بابل فاقدة الخير والحب . منقطعة عن الحوار مع ذاتها ومع ربها . ولا ينسى عبدالله خيب الجنس ودور الهيروين . وفي كل ذلك لا يحيد عن مجتمعه وعن انسانيته المتحفزة للتجديد وللافضل . فلا ينقاد الى الافكار المسبقة . انما يستسلم الى الاقرب من وجدانه . يعاوده وجه امه وهي على فراش الموت فيسترجع غبطة الطفولة ويصعد الى ربه صلاة : « اغسلني بنور الرجاء فتعود الي حلاوة الانتظار وربيع المفاجأة » .